الغزل العذرى
والصحراء العربية

د. نظمى عبد البديع محمد

لون جديد مبتكر وضح تمام الوضوح متميزا بكل خصائصه فى العصر الاموى حيث قصدت فيه القصائد ، وأنشدت فيه المقطعات ، وشدى به المحبون العذريون الذين أقلعوا جو الصحراء بلوعة الهوى ، وحرقة الحب ، وسفح الدموع ، وتأوهات الأسى ، وسهدهم وطول ليلهم ، وعظيم تضحياتهم بكل حياتهم فداء لمن أحبوا .

والميل إلى المرأة طبيعة وغريزة فطرية نابعة من حاجة الإنسان النفسية إلى من يكمله ، وتعلق الذكر بأنثاه سنة الله فى خلقه .

والصحراء العربية تميزت بجو حار جعلها تنضج كل شىء يحيا فيها مبكرا والدفء فيها كفيل بأن يسرع بكل من الفتى والفتاة إلى الرجولة والأنوثة ويلهب العاطفة ، ويحد الشعور وخاصة إذا ما أظلم الليل ، والتف السكون وأطبق ، وانعدمت المسلاة ولم يبق للعربى من ضروبها غير الفكر فى المحبوبة التى علقها فؤاده ، وتخيرها مسرحا لهواه منذ كانا فى مرح الصبا ، وحيث شبا يرعيان حبهما وإبلهما فى براح البادية ، فغدا كلاهما محبا لرفيقه حبا ساميا عفيفا شغل عليه أقطار نفسه ، وأحلى أيام حياته .

ولربما عظمت عاطفة الحب عنده فأضفاها على نفسه غامرة عامرة ثم طفت ... فوسعته هو وبعيره — كل يميل إلى جنسه المقابل له لدى الطرف الآخر فقال :

وأحبها وتحبنى ويحب ناقتها بعيرى

فسوى ثم دمج نفسه وحيوانه فى عاطفة الحب مبادلا إياها محبوبته وناقتها أيضا .

والشاعر بهذا حلق بخياله إلى حيث أمكنه أن يسبغ عواطفه على بعيره ويسمو به صعدا إلى سلم ذوى المشاعر الراقية ، فكل منهما غدا محبا — هذا على نهجه الإنسانى ، وذاك على طريقه الحيوانى .

غير أن بعيره بالذات قد رقى عن غيره من الإبل بما حمله صاحبه من عاطفة الحب .

هذا — والعربى ذواق للجمال ، وصاحب عين ناقدة له — يلفت نظره فيخلب لبه ولو كان فى صورة نبتة أو ناقة فما بالك بأنثى الإنسان الجميلة ! ؟

وإذا كانت الصحراء العربية قد كثرت فيها الحروب التى لا تولد إلا كراهة وبغضا فقد زخرت أيضا بصور الحب العفيف الطاهر على امتداد حياة العرب فيها .

فالمتيمون الجاهليون الذين أحبوا وكلفتهم عفتهم فيه حياتهم تعمر كتب التراث الأدبى بشدوهم فيه .

هذا والغزل الملتزم مفتتحا فى صدر القصيدة الجاهلية دليل للسمو عند العربى فى تعلقه بتلك العاطفة النبيلة يتناولها بنبل أيضا عند حديثه عنها ، فلم تطالعنا فروسية الصحراء إلا بكل شهامة وترفع عن التجريح للحبوبة وإن كان الحديث عنها غزلا فيها .

« عنترة » الفارس البطل المحب لا يمل التذكر للمحبوبة حتى وهو فى صراع الأقران ، فلا يملك إلا أن يقول فى عفة الفرسان :

فوددت تقبيل السيوف لأنها لمعت كبارق ثغرك المتبسم

فثغر « عبلة » عند التبسم يمثل لونا جماليا واضحا فيها يهيم به فارسها ذكر به لمع السيوف وبريقها فى المعركة — غير أن الفارس المحب أملى عليه نبله

أن يقبل الشبيه فى الضياء واللمع (السيوف) عفة وترفعا منه عن التجريح لمن يحب ـ هذا وأصالته فى النبل يشهد بها قوله :

وأغض طرفى إن بدت لى جارتى حتى يوارى جارتى مثـــواها

وما أن يأتى الإسلام فيصون الأعراض . ويرعى الحريات ، ويؤسس ويرسخ البناء الأخلاقى الكريم فيجعله دينا حتى نرى تحولا فى عاطفة الحب يسمو بها إلى الحب لله طاعة والحب لرسوله متابعة والحب المسلم أخوة ، ويسرى السمو فيشمل حب الإنسان لأنثاه فيغدو حبا عذريا سياجه الصفاء والنقاء والحياء والطهر من بعد أن أنضجته الصحراء ، وسمت به القيم فزانته العفة ، وألهبه التمنع والحفاظ ، ورعاه الترفع عن الرغائب الجسدية التى تزرى بسمو العاطفة .

ولما كانت تقاليد الصحراء العربية قد جرت بحرمان المحب من الزواج ممن يشبب بمحبوبته . ويذيع بين الناس حبه لها خشية أن يظن بأن طلب الزواج منها إنما يتم قصدا لإخفاء إثم مجترح يراد بالزواج ستره — لذا — نجد عامل الحرمان يفعل بعاطفة الحب الرقيقة الناضجة فعله حيث نراها تعنف ، وتشتد سورتها ، وتتأجج لواعجها ، وتلتهب نارا تحرق من يلامسها وخاصة إذا ما غدت تآلفا روحيا ، وتجاذبا نفسيا رقى به السمو فوق الطيش والتشهى .

فالصدر موطن الحب والحنو يصبح مصطلى يستدفأ به عندما يشتد القر عند «المجنون» حيث يقول :

أقول لأصحـــابى وقد طلبوا الصلا

تعالوا اصطلوا إن خفتم القر من صدرى

فإن لهيب النار بين جوانحى إذا ذكرت «ليلى» أحر من الجمر

والعيون منه تفيض بالدمع المسفوح نهر يغنى وفير مياهه عن متاعب

الحفر للسقيا والتى ربما تتعرض للفشل والإخفاق واليأس : فعندما يقول له أصحابه كما يحكى فى شعره :

فقالوا : نريد الماء نسقى ونستقى
فقلت تعالوا فاستقوا الماء من نهرى

فقالوا : وأين النهر ؟ قلت : مدامعى
سيغنيكم دمـــع الجفون عن الحفر !!

وأخيرا يصرعه الحرمان فى الحب فيصبح جسدا قد أودى ثقله نزعا ذاهبا مع محبوبته التى ذهب بها وهو ما بين إمساء وإصباح فيقول :

أبيت صريع الحب دام من الهوى وأصبح منزوع الفؤاد من الصدر

ولا غرابة فالمحبون حبا عذريا عندما تستحكم بهم لواعجه يندفعون إلى التجسيم لحرقه ومآله من بعد أن وقعوا صرعى لتقاليد يجب أن تحترم فأذابهم الحرمان ، واستعذبوا مرارة قسوته ، ولربما استزادوها على الرغم من قتلها لهم .

فيا رب لا تسلبنى حبها أبدا ويرحم الله عبدا قال آمينا

وما كان داعيهم إلى الافصاح عن حبهم مبكرا غير الاستجابة منهم لضغط عواطفهم المشبوبة التى لم يستطيعوا لها كتما ، فحبهم حب عظيم يستعصى على الكتمان ، والكتمان له أقسى من التصريح به .

والعذريون فى حبهم هم فى خضوع لأسرين أسر العاطفة وأسر التقاليد ، ولا فكاك لهم من أحدهما .

فالعاطفة متأججة مستحكمة ، والتقاليد مهيمنة مسيطرة ، ومن فوق كل هذا قيم وأخلاقيات تلزمه العفة ن الوفاء — من هنا كانت مأساتهم فى حبهم .

ويدور بذهن الباحث فى الأدب سؤال مؤداه : ولم اختصت الصحراء

العربية بالهوى العذرى على الرغم من أن الصحارى تغطى مساحات شاسعة من الكرة الأرضية ومع هذا لم يوافنا مثل هذا اللون قادما من صحراء سيبيريا أو كلاهارى أو الصحراء الغربية مثلا ؟

وتبدو الاجابة على هذا السؤال سهلة ميسورة .

إذا لحظنا أن الصحراء العربية بذاتها هى صحراء القيم الخلقية من عفة وشهامة وإباء وغيرة مارسوها منذ أن باشروا حياتهم فيهـــا فكانت هى الصحراء الوحيدة من بين صحارى الدنيا هى المنتجة لهـذا اللون من الأدب المعبر عن العاطفة الانسانية الراقية ، وهى بهذا تكون قد أهدت الانسانية مثالا طيبا فريدا طيبا للسمو بالعواطف الانسانية فوق التشهى والابتذال .

هذا — والعاطفة الحزينة فى الحب طابع لم نعهده فى غير الفكر العربى خضوعا عندنا لميول القلب المزدان بالوفاء واصطدامهما بالتقاليد .

أما النزوع العملى فى الغرب وسيطرة المادية عليه فقد أخضعت أسمى عاطفة فى الانسان عندهم للمساومة والبيع والشراء طبقا لقانون العرض والطلب

لهذا — لم تنتج صحراوات الغرب أو الشرق حبا عذريا للفارق الكبير بين العفة والطهر وبين الانحلال والعهر ، وشتان بين العفة العربيـة المسمية للمحبوبة ، وبين التبذل والابتذال لدى الغرب المستطيب (للمكياقيلية) فى الحب على طريقة تمتع بها ما ساعفتك ، وحتى عـلى فرض التسليم بوجود أخلاقيات مشابهة فى بعض الصحارى أو المناطق المشابهه كالغيرة على العرض مثلا غير أنها لم توانتا منها أحاديث العفة والتمنع فى الهوى العذرى صورا وجدانية أدبية صافية راقية — أسمت الحب فى قلب العربى وجعلته مثالا للإخلاص والوفاء والنقاء مثلما واتتنا به الصحراء العربية .

د . نظمى عبد البديع محمد
أستاذ مساعد ، كلية اللغة العربية